

الذاكرة الجماعية: الأصل والتفرعات

ليلى العرباوي (*)

المخلص: تشكل الذاكرة الجماعية عنصرا مهما لمقاربة الفضاء الاجتماعي لذا يتعلق الأمر هنا بالبحث في أصولها بالعودة خصيصا إلى عالم الاجتماع الفرنسي الدوركايمي موريس هالبواكس ومحاولة تفكيكها برسم حدودها بالنسبة لمفاهيم أخرى لا تقل عنها أهمية ولكنها تحمل فويرقات في المعنى كالتمثلات الفردية والجماعية والمخيل والتاريخ، الخ وهو ما يجعل اللجوء إلى مؤلفين غير متجانسين كاميلدوركاييم وموريس هالبواكس وكورنيليوسكاستورباديس وبيير نورا أمرا ممكنا.

الكلمات المفتاحية: الذاكرة الجماعية، الفضاء الاجتماعي، التمثلات، أماكن الذاكرة، المخيل.

The Collective Memory : The Origin And The Ramifications

Leila Larbaoui

Abstract: The collective memory constitutes an important element to approach social space it is why the question here is to trace his origins since the French an durkheiman sociologist Maurice Halbwachs and to try to draw its limits in relation to other concepts with which it has some little differences like individual and collective representations , imaginary, history, etc.... making the use of authors like Emile Durkheim, Maurice Halbwachs, Cornelius Castoriadis or Pierre Nora possible.

Keywords: collective memory, social space, social representations, memorial sites, imaginary .

المقدمة:

يندرج الاهتمام بالذاكرة والذاكرة الجماعية في علم اجتماع الذاكرة *sociologie de la mémoire* التي تدين بالكثير لعالم الاجتماع الفرنسي موريس هالبواكس وإن كان الاهتمام بها راكم الأدبيات إلى درجة تحول معها الموضوع إلى تقليعة من تقليعات الحقل الثقافي والعلمي، دفعت بالبعض للحديث عن أخطار الإفراط في الذاكرة *Les excès de mémoire* هذا واقع الحال لدى الغرب أما الواقع العربي وعلى النقيض يعاني من انحسار مجالات الذاكرة بل وإن جاز التعبير إلى قحط في الذاكرة بسبب عدم السماح ببروز إلا الذاكرة الرسمية من جهة والإهمال الذي تعاني منه مثل هذه المواضيع لاسيما من طرف المجتمع العلمي الذي يقدم غالبا أعمالا تحت الطلب تصطبغ بالصبغة الوظيفية في معظم الأحيان أو لانتماء الذاكرة للشعبي وللتقليد الشفوي وهو ما يضاعف إقصاءها من دائرة الاهتمام العالم. وتلبي دراسة الذاكرة عدة متطلبات معرفية ومنهجية وبنوعية تسجل لفترة فاصلة في انبراء المجتمع العلمي خاصة علماء الاجتماع وهالبواكس أحدهم وأولهم عن التاريخ الكوني والتفاتهم إلى التاريخ الشخصي، دون الوقوع في علم النفس، لأن الذاكرة وهي موضوع الحديث هي قبل كل شيء جماعية لذلك يبين هالبواكس بكثير من العناية ميكانيزمات الانتقال من الذاكرة الشخصية أو الفردية إلى الذاكرة الجماعية. إن هذا الانبراء هو في نهاية المطاف انعكاس للاهتمام ليس بالتاريخ المجرد، الحدتي الكوني وإنما بالتاريخ الطويل لمدرسة الحوليات إذ كان هالبواكس عضوا فيها، والتي تمثل ذروة تأثر علم التاريخ والدراسات التاريخية بعلم الاجتماع وبتأثير دوركايمي. دون أن نهمل وضعية هالبواكس نفسه كيهودي. إننا نعرف أن التحولات الكبرى التي عاشتها أوروبا والتي تعد بالكثير أي بتحويلات أكثر تجذرا وعلى المدى الطويل جعلت الجميع ينخرط في موجات وحركات تاريخية بدأت تشعر الأقليات حيالها بالخطر على وجودها لأن هذا الطوق أو الطوقان إلى العالمية مع ما رافقه من أحداث ما كان ليترك مكانا ولو صغيرا حيال الاهتمام بأمر كانت حينذاك ثانوية.

1/ بدايات منشأ تقليد الاهتمام بالماضي:

تتكاثر في الفضاء الثقافي الغربي الأدبيات التي تجعل من الماضي مركز انشغال وتعمل على استحضاره أو جعله يطفو إلى السطح كلاوعي زمني أخفت تحت وطأ الأحداث المتلاحقة وتفاصيل شتى ولم يعد التاريخ المعرفة الوحيدة المؤهلة للحديث باسم الماضي والذي جعل هذا الأمر ممكنا العلاقة المميزة مع الكتابة في زمن معين من تاريخ تطور المجتمعات الغربية والتي تلتها علاقة لا تقل نوعية مع الصورة بحيث أصبحت الذكريات ظاهرة ذكراوية *Phénomène mémoriel* تتعاطى معها أجناس عديدة من الكتابة والتعبير من محاولات وشهادات ومذكرات وأفلام وأفلام وثائقية.

وبالتالي أصبح استدعاء الذاكرة *convocation de la mémoire* سيرورة وقائية حينما وإنقاذية حينما آخرا، تحاط بكوكبة من الطقوس وبهالة من التعظيم خصوصا في الفضاء الذي تتكاثر فيه الذكريات المتصارعة وحتى الذكريات والذاكرات المضادة كالذاكرة والذاكرة الضد/الضدية. يأخذ الماضي في حضوره تجليات متباينة إذ يكون إما على شكل تاريخي أو على شكل أدبي أو في عبر وأمثال أو في لسرد الشخصي كقصة الحياة. ليكون بدا أثرا أو نممة على تراب هو آيل

بالضرورة وفي النهاية لتغيير المكان مكانه داخل الزمان (وعليه الزمان تحذف) ومنه ضرورة استقائه مرات عديدة لترصد ما يطرأ عليه من تغيرات. خاصة أن الذاكرة تشكل ملاذا للمتذكر يتم فيها استثارة ماضٍ تغيب فيه الدولة وكل سلطة لتحضر في أشكال أخرى ربما وأين للراوي سلطة على الكلمات ليكون هو عاقلها الوحيد، تلك هي آليات الذاكرات الجمعية كما يصفها لوقوف أنها رافضة للتسلسل وأسطورية عند وجيه كوثراني². أي خالطة للأزمنة *Anachronique*.

إن تمردها على الخط الزمني لا يقذف بها، بأي حال من الأحوال، خارجه فالزمن يخدم الذاكرة كما يخدم السائل من طرف الوعاء. لنصغي إلى بروست عندما يتحدث عن الساعة "ساعة ليست فقط ساعة إنها مزهرية مليئة بالعطور وبالنفود وبالمشايخ والمناخات وما ندعوه بالواقع هو علاقة معينة بين هذه الإحساسات وهذه الذكريات التي تحيط بنا في آن معا".

إذن لا معنى للزمن دون هذا المحتوى الذي يؤثته ولاوجود للذاكرة خارج الذكريات هذه التي تستحضر وبكل ما أوتيت من معنى النسيان بحيث لا نكرى ولا ذاكرة دون نسيان، انه مجعول ليقويها، ليثد من أزرها بل أنها تتأسس في جوهرها ضده لذا تعود أعياد الميلاد وأعياد الزواج وذكرى الوفاة والبومات الصور لتؤجج الذاكرة تحسبا لهذا النسيان فمن الطبيعي أن نجد ذاكرة للأفراد وذاكرة للمؤسسات كذاكرة التلفزيون والمذياع والسينما والنصب التذكارية وشتى الاحتفالات.

وإذا كانت الكتابة التاريخية تختزل الكثير من الأخطاء المحدقة والاستقصاء التاريخي يصدق ويصادق على الواقعة التاريخية مما يجعل التاريخ صاحب أهلية مقارنة بالذاكرة لان هذه الأخيرة مستعص التعاطي معها من حيث تعقد أساليب التذكر³ والشك الذي يساورنا فيما يتعلق بثقة الشهادات.

على أساس أن كليهما ينتمي إلى علم الماضي المنصرم كما تفضل سوزان سليمان القول إذ لم يعد المختصون في الزمن العتيق *spécialistes du révolu* يأنفون من الاهتمام بالماضي

لا من وجهة نظر التاريخ كعلم وإنما أيضا من وجهة نظر التذكر ويخططون للتعاون معا من أجل إحاطة أوسع وأعمق بهذا الذي يشغلنا رغم أنه لم يعد حاضرنا وعلينا ألا نفهم أنه لم يعد موجودا بين ظهرانينا. أبعد من ذلك قام العديد من المؤرخين بتناول الذاكرة بالدراسة على أنها لم تكن تكون حصريا موضوعا لهم أو موضوعهم الحصري. المؤرخون الذين ينصبون أنفسهم المحرضين⁴ والحكام والمعلقين على التاريخ.

وعلى هذا النحو لم يعد هنالك مانع موضوعي يقف حاجزا أمام تحول الذاكرة بشقها الشخصي والذاتي إلى موضوع للمساءلة العلمية من طرف مختلف العلوم الاجتماعية وان تواجه وتواجه طاقم الأدوات العلمية وهو ذات الطريق الذي سلكته الحادثة التاريخية قبلها لترتقي من مجرد حدث إلى مقام الحادثة.

2/ جهود هالبواكس في نحت مفهوم الذاكرة الجماعية:

يعود الفضل في معلمة مبحث الذاكرة الجماعية كما سبق ذكره إلى هالبواكس ليغدو بعدئذ من المباحث الحاضرة بقوة في حقل العلوم الاجتماعية على اختلاف زوايا الرؤية وأساليب تناول.

وكسلفه أستاذه دوركايم دأب هالبواكس في نصوصه على افتكالك الذاكرة من فضاء علم النفس الفردي ليقحمه وعلى غير العادة في فضاء علم الاجتماع مطلقا عليه تسمية الذاكرة الجمعية/الجماعية فاتحا به تموقعا علميا ضمن أفاق جديدة وغير أليفة فرضت نفسها في أحابيين كثيرة على المؤرخين أنفسهم كموضوع حري بالمعالجة بعدما بقيت طويلا على تخوم علم التاريخ خاصة وتخوم العلم عامة. لذا لم يعد من الغريب على البتة أن نشاهد

مؤرخين يتناولون بالدراسة أماكن الذاكرة *Lieux de mémoire* التي تشكل الأرضية الخيالية لأمة أو طبقة اجتماعية.⁵ اعتراف ثمين بما للذاكرة من أهمية في بناء الهوية أو مايسميه Paul Ricoeur الهوية السردية للأفراد والجماعات والإنسانية قاطبة.⁶

ولعل ما يذكره G Durand يضيئنا أكثر حول مثل هذه المسائل من أن الذاكرة هي القدرة على تنظيم لكل انطلاقا من جزء معيش.⁷ لذلك فهي تقلت من الزمن فالزمن المستعاد بفعل الذاكرة والذي يعد انتصارا هوزمن منفي أو منكر.⁸

لأن قدرتها على العودة والاستعادة وتحديد العودة إلى الماضي يسمح لها بإصلاح تجاوزات الزمن لذا فهي قدر مضاد.⁹

وهكذا باشتغالها كملطفة وكقدر مضاد يكون ديران قد وضح معالم الذاكرة في اتجاه معاكس لما ذهب إليه برغسون.

3/ الذاكرة كمحاولة لتملك الماضي:

إن كل ذاكرة هي إحياء للماضي عن طريق إثارة الأجزاء الشاهدة على معيش مضى، دليل إضافي لكوجيتو الوجود أنا أتذكر إذن أنا وجدت إذن أنا موجود. فضلا على أن وجود الذاكرة يشعرا بدرجة الاستمرار الاجتماعي.¹⁰

وعليه إذا كان ماضينا يبقى مخفيا عنا كليا لأنه مختف بواسطة ضرورات الفعل الحاضر فإنه سيجد القوة لتجاوز عتبة الوعي في كل المرات التي نهمل فيها الفعل الناجع لنضع أنفسنا نوعا ما في حياة الحلم.¹¹

4/ الفرق بين الذاكرة والتاريخ:

مما لا يساوره الريب أن الذاكرة ليست بالتاريخ لاختلاف أسلوب انتقائهما ثم انه يمكن أن تتوتر علاقتهما بل ويتعارضان لكن من المؤكد بالموازاة أنهما يحتاجان بعضهما. فالتاريخ يسائل الذاكرة وهذه الأخيرة تحكي تحولها عبره.¹²

والملفت للنظر أن كليهما يتعرض للاعتداء فالتاريخ يعاني خطر التزييف والتزوير والاستغلال والتلاعب لأغراض غير نقية وكذا الذاكرة تعاني الأخرى من تهديد الاغتيال لأنها يحكيان اللامقول ويميطان اللثام عن المسكوت ولكن بقدر ما هما خطر على، هما في نفس اللحظة وبنفس القدر منفعلة ل. لذلك بقدر ما تعمل الأطراف المتضررة على طمسهما تعمل الأطراف

المنفعة على إذكائها. وتتخذ الذاكرة في هذه الوضعية وضعا جد هش فهي من جهة غير مكتوبة ومن جهة أخرى معرضة للتلف جراء النسيان ولكن لا يستطيع أحد الطعن في أهميتها.

أهمية تعوزها صرامة التاريخ والهالة التي يحاط بها حدثا وعلما ولكن هذا لا ينقص منها شيئا. فهناك ماض لهذا الحاضر بالذات وهو ذاكرة الرجال القدماء في الزمن الخالي وهو ليس ما نعرفه نحن عن ماضيهم.¹³

5/ الفرق بين ذاكرة فردية وذاكرة جماعية

جرت العادة على اعتبار الذاكرة فردية لذلك لم تكن الحاجة قائمة لإضافة النعت لها ليخصصها ومنه انفرد بها علم النفس أولا والمواد الأخرى على نفس الهيئة إلى أن طرحها علم الاجتماع كمعطى جماعي. بحيث عمد هالبواكس لنقل المفهوم من دائرة الفردية إلى الجماعية وإلى التفريق أولا بين الذاكرة الفردية والجماعية غير أن هذا الاختلاف لا يمنع التقاءهما.¹⁴

ثم أن الذاكرة الفردية ما هي في نهاية المطاف سوى وجهة نظر حول الذاكرة الجماعية، تتغير وفق المكانة التي يحتلها الفرد والتي تتغير هي الأخرى بحسب العلاقات التي يعقدها الفرد مع أوساط أخرى.¹⁵

وهذا ما يزيل الغرابة عن دخول الذاكرة الفردية والجماعية في تعارض أو حتى تناقض بسبب كما سبقت الإشارة إليه تركيبة من التأثيرات ذات الطبيعة الاجتماعية. ربما أبسط محاجة خدمة للسياق أن الإنسان اجتماعي بطبعه

فالأفعال الأكثر فردية التي يقوم بها هي في الأول والأخير اجتماعية لأن المحضن والمجتمع.

وليس هذا فقط بل أن الذاكرة الفردية تستند إلى معطيات الذاكرة الجماعية التي لا تستطيع أن تتبنى تمثلاتها منقطعة عن المجتمع وعن الذاكرة الجماعية فتمثل الذاكرة الفردية للأشياء منظور إليه بهذه الكيفية مرتبط بتمثل الذاكرة الجماعية لها وفق منطق يعلمه لنا المجتمع منطق جغرافي طوبوغرافي فيزيائي أي وبصورة أوضح فإننا نثير الأشياء في ذهننا وفق ارتباطات سببية لقننا المجتمع إياها.¹⁶

وكان الذاكرة الفردية تأتي لتتزرع على الذاكرة الجماعية ودون هذا الانزراع فإنها لاتحي. وعن طبيعة مثل هذا النوع من الارتباط يذكر هالبواكس بملاحظة حكيمة إلا وهي إن الذاكرة الفردية تتوقف عن الارتباط بالجماعة حالما يتوقف الانتماء للجماعة تلك.¹⁷ هل الذاكرة الجماعية هي أولا وأخيرا محصلة للذاكرات الفردية؟

ليس تماما فالذاكرة الجماعية لا يشترط فيها لزاما أن تكون متجانسة¹⁸ ومردة إلى خاصية جوهرية في الذاكرة الجمعية كونها ليست بذاكرة مشتركة إذ وكما يشير إليه Yves Lequin هناك فارق بينهما فالذاكرة المشتركة ذاكرة أشخاص يتذكرون معا في حين وان الذاكرة الجماعية تعني وأنه تتشكل حول حدث أو جملة أحداث عاشوها معا ذاكرة نزاعية تستند إليها دلائل مختلفة ويمكن حتى إن تكون متعارضة. لأنها تتأثر بالمكانة أو الموقع داخل النسيج الاجتماعي.¹⁹

وهي جماعية لان الذاكرة الجماعية لا يمكن أن تتواجد دون أن تجسدها جماعة، تحملها، تنقلها، وتحببها وإلا تتجمد وتتكلس في شكل تقليد واه ولا تتواجد إلا في أماكن للحفاظ عليها.²⁰

إن انتقالها عبر الأجيال مسألة جد هامة، هو نقل أو انتقال لا يتم بواسطة التوريث لتقليد أو مجموعة تقاليد وإنما عبر التعليم الذي يضطلع بمهمة توجيهية.²¹ ونعترض هنا على هذا التحديد لان الكاتبة ألغت التقليد في انتقال الذاكرة في حين انه يصلح أن يكون كذلك في الدول التي لا تعرف انتشارا كبيرا للتعليم بل حتى وان كان موجودا فان احدهما لا يلغي أداء الآخر. إن وصف فالنسي يعكس جيدا طبيعة هذه العلاقة: "التاريخ نشاط فكري ينظم المعطيات لجعلها مفهومة عندما تكون الذاكرة ملابذا للافعال وتستطرد التاريخ يتماسف مع الماضي ويبحث عن القطائع والانقطاعات عندما تقترض الذاكرة الاستمرار".²²

وبالنسبة لريكور " فالذاكرة الجماعية هي باقية من الآثار التي تركتها أحداث تاريخ الجماعات المعنية والتي لها المقدرة على إخراج هذه الذكريات المشتركة في الحفلات والطقوس والاحتفالات العامة".²³

إن هذا الإخراج ضروري بالنظر إلى كون الذاكرة كما يقدمها هالبواكس ناقدة ومقاومة لتدمير القيم لذا تأخذ على عاتقها إعادة تشكيلها وصياغتها.²⁴

هل الذاكرة الجماعية مهمة؟

إنها في غاية الأهمية لأن الجماعة الاجتماعية تعي شكلها بفضلها.²⁵ وإن كان محتواها متعلقا بالماضي فإن الخدمة التي تسديها متعلقة بالحاضر أي أن إعادة بناء للماضي تكيف صورة الوقائع القديمة مع المعتقدات والحاجات الروحية للزمن الراهن.

ويضرب هالبواكس مثلا لذلك عن المسيحيين الذين قاموا بنقل مواضع لحلقات زمنية مهمة ومقدسة في النجيل فهناك مثلا أسطورة تضع قبر الملك داوود في بيت لحم وليس في القدس لأنهم يعتبرونه سلفا للمسيح ونفس الأمر بالنسبة لمسار درب صليب المسيح الذي عرف تغيرات إذ وفي منتصف القرن الخامس عشر وصفوه خارج القدس.²⁶

وتأخذ إعادة البناء هذه شكلين اثنين هما:

* التجزئة: بحيث تطابق ذكرى معينة أماكن عديدة.

* التركيز أو المركزة إذ يجمع مكان واحد عدة ذكريات.²⁷

لقد شغلنا إلى حد الآن تعلق الذاكرة بالماضي لكن لم هي جماعية وما محتواها وكيف تشتغل؟

يتمثل محتوى الذاكرة الجماعية في تمثلات الجماعة لماضيها عن طريق انتقاء أحداث وشخصيات وقصص وروايات وحوادث وأشعار وأمثال شعبية والفضاء الجغرافي الذي غير اسمه أو وظيفته أو شكله أو اختفى، الخ.

أي جملة من الذكريات غير أن الذاكرة ليست هذا المحتوى فقط بل النظرة لهذا الماضي المسقط على الحاضر والمؤسس للهوية.²⁸

لان الجماعة تضيف على هذا المحتوى مواقف وتبدي آراء حيا ل ومشاعر التعاطف أو التجافي. ولكن ينصهر كل هذا في بوتقة متناسقة لذا فهي بقدر ما هي مشكلة هي مشكلة لمنظومة دينامية، حاملة للمخيل تظهر معالم المستقبل نتيجة تفاعل الماضي والحاضر.²⁹

٦/ مفهوم أماكن الذاكرة وعلاقته بالذاكرة الجماعية:

يقارع الجميع ضد النسيان الذي يصير مرادفا للموت وللعدم، لذا نجد أن المجتمعات وفي مقدمتها مختلف السلط تعمل على المحافظة على الذاكرة الحية أو قد تلجأ إلى إحيائها عن طريق توريثها للأجيال باحتفالات الذكرى والإحياء للطقوس المصاحبة لها والمحيطه لها والمحيطه بها من أجل استحضار مشاعر الرضا أو الفرح أو الحزن أو الشجب التي تتطلبها ذكرى الحدث أو الموضوع ذاته، وتماشيا مع هذا المعنى يتحدث Pierre Nora عن أماكن الذاكرة أو الأفضل مواطن الذاكرة "les lieux de mémoire" والتي لا تكون بالضرورة أماكن في المعنى الفيزيائي للفظ إذ يمكن أن تعبر عن نصب تذكاري أو مكان ما (موقع، مدينة، أثر، monument)، أو شخص ما أو حدث ما بشرط أن تكن هذه العناصر محاطة بحالة رمزية على حد تعبير P. NORA أي مجال للخيل، ولإبراز هذه الفكرة يكتب Nora: "إن المكان حتى ولو كان ذا مظهر مادي محض مثل مخزن dépôt للأرشيف، لا يكون مكانا أو موطننا للذاكرة إلا إذا زوده الخيال بهالة رمزية"³⁰ وهكذا تتضح لنا معالم مواطن الذاكرة التي تجمع بين المكاني والزمني.

٧/ الفرق بين الذاكرة والمخيل:

إن الذاكرة ورغم محتواها الموضوعي فإنها لا يمكن أن توجد دون القدرة الخارقة على التخيل الذي هو أسلوب أو طريقة للهروب من الحاضر وعدم عودة الزمن إلى الوراء ويمكننا من تمكين التعايش بين الماضي والمستقبل في نفس الدائرة النفسية/العقلية.³¹

و باختصار فإن التخيل هو العامل الذي يمكن الفرد من التكيف فوق الحقب والأزمنة بالتححرر منها وتجاوزها ناهيك عن كون الذكريات تعود إلينا في صورة صور ومنه Image/imagination مما يعنى أننا لا نستطيع التذكر ولا حتى التخيل خارج إطار الصورة وهذا الواقع بالذات الذي يجعل الذاكرة "خزان صور كبير".³²

دون أن يعنى هذا في أي حال من الأحوال، أن الذاكرة هي الخيال وإنما نحتاج الخيال كمحرك أو راس قاطرة leitmotiv مع الاحتفاظ في الذاكرة / الذهن بالفوارق الطبيعية الموجودة بينهما وعلى رأسهما كون الخيال جموع ومسموح له بتعريف الوقائع / الأشياء، عكس الذاكرة المطالبة بأن تكون مطابقة ووفية للوقائع والأشياء وهو الفرق الذي يشير وينبه له هيوم³³

و هكذا نجد أنفسنا أمام أربعة أبعاد متقاربة هي التخيل- المخيل - التمثلات- الذاكرة.

فالخيال *imagination* ينتمي إلى نفس الحقل الاشتقاقي والدلالي لصورة *Image* واشتق منها فعل تخيل ومعناه الذي له هلوسات/ خيالات *hallucinations* ولكن تعني أيضا تمثل لذلك، عندما تحدث شخصا ما كثيرا ما نقول له تخيل ! *imagine* لأن المسألتين مرتبطتان، فالخيال هو قدرة العقل على التمثل لصورة أو عن طريق الصور مواضع مثل: المعارف أو التجارب الملموسة. و عليه تعني والكلمات أشياء وبهذه الكيفية ندرك مدى أهمية الخيال في عملية الإدراك نفسها إن وبالعودة إلى المحللين النفسيين فإنه من المستحيل حدوث أسباب وعي بالواقع دون مخيال.³⁴ وماذا عن علاقة الصورة بالتمثلات؟

مع الوقت حدث تطور في الدلالة المتعلقة: لمنطوق صورة، حيث أصبحت مرادفة لتمثل محسوس مقابل تمثل عقلي أو فكري³⁵

Représentations sensibles ,représentations intellectuelles

الشيء الذي يعكس كون كل من التمثلات والذاكرة تنفرسان في التخيل من منطلق أو تخيل هو عملية من العمليات الذهنية الكثيرة ذات العلاقة ليس منح الحياة العقلية فقط بل والنفسية والعاطفية ووجود الوعي بل والوعي بالوجود.

ورغم انتهائه إلى العالم الفردي جدا للوعي فإن التخيل اجتماعي أيضا لأن الفرد يخزن صورا مأخوذا من وسطه الاجتماعي مدينا إياها ومتملكا لها في حين حيث وسطه الاجتماعي الصور الذي ابتكرها والتي مع مرور الزمن نقلت منه وتتموضع (*s'objectivent*)، وهذا في حقيقة الأمر ما يخلق من البشر عالما وسيطا وسيطا يتصلون من خلاله ويتأثرون ببعضهم البعض ويشكلون مشاريع قيما ومعنى.

إن أصل المخيال في التفكير هذا مكانه أما محتواه فهو كل التمثلات التي صنعها البشر لتفسير عالمهم وتسييره تلك التمثلات المشكلة من صور وأفكار وأحكام واستدلالات والتي لا تصير نافذة إلا إذا تحررت عن شبك الوعي وانتقلت إلى الواقع.³⁸

يبين *castoriadis* العلاقة بين المخيال والرمزي مقرا منذ البداية بعمقها وغموضها، فالمخيال يحتاج للرمز حتى يعبر عن نفسه وأبعد حتى يوجد ويتواجد أي حتى ينتقل من الافتراضي إلى الواقعي وحتى يصبح ذلك متاحا لابد وإن يستخدم المخيال الصور، لكنها صور لا تمثل ما تمثله عادة ولكن أشياء أخرى جديدة وهذه هي قدرة المخيال ألا وهي مقاربة الشيء ليس كما هو ولكن بشكل مغاير وهذا في حد ذاته تمثل.³⁹

إن المجتمعات أدركت واستوعبت بطريقة جيدة عجزها على قوننة التاريخ الذي يتمتع على كل سيئة فأصبحت تصنع نفسها، انطلاقا من هذه الفكرة يصبح المخيال الاجتماعي ممكنا فهو الذي ابتكر الكلام والمؤسسات وحتى أشكالها ولولاه لما استطاعت العقول والنفسيات الفردية في معزل عن بعضها البعض فعل ذلك، فالمخيال الاجتماعي هو إنجاز جماعي وهو صياغة أخرى لقدرة الابتكار الجماعي كجماعة مجهولة، يتحقق كلما تجمع البشر وأعطوا لتجمعهم شكلا مؤسساتيا.⁴⁰

و هذا في واقع الأمر ما هو إلا طابع ومظهر من مظاهر المخيال وهو الذي يسميه كاستروبياديس المخيال الجذري أو الراديكالي وهو القوة المأسسة *L'imaginaire instituant*

وفي هذه الحالة لا يعني انعكاسا للفكري كمعطى بعد موجود ولكن الابتكار المتواصل لأشكال وصور تؤسس لأشياء جديدة.⁴¹

ومن هكذا منطلق يقسم كاستروبياديس المخيال إلى قسمين، مؤسس (بكسر السين) ومؤسس (بفتح السين) (imaginaire instituant/ institué)

• المخيال المؤسس: بكسر السين imaginaire instituant وهو إنجاز مجموعة من البشر خلفت دلالات جديدة تقلب الأشكال التاريخية القديمة.

• المخيال المؤسس: بفتح السين imaginaire institué ولا يقصد به هنا الابتكار في حد ذاته وإنما منتوجه أي جملة المؤسسات التي تجسد الدلالات الجديدة سواء كانت مادية في شكل أدوات، تقنيات، وسائل سلطة أو غير مادية كالكلام والمعايير والقوانين.⁴²

وإن كان المخيال في الفضاء الحضاري والتفكري الغربي يتمظهر بالأساس من خلال سمات ذلك الوسط القائمة على الإبداع والابتكار والتغيير وهي عناصر لازالت للأسف غائبة عن الفضاء العربي فإن هذا الأخير يتشبه بالشفوي والخرافي والشعبي نظير غياب الثقافة العالمية أو بهوتها وعدم تفتح بعد ظروف تفتتها. ليجعل الزمن الحالي في تاريخها شبيها بظروف الغرب في عصر ما قبل الأنوار وعلى النقيض يتراجع التفكير العربي حتى عن زمن ازدهاره ما قبل الانحطاط.

الخاتمة:

إذا كان لا بد وأن نحتفظ بمعلم مهم فيما يتعلق بمبحث الذاكرة فهو كونه يدعونا إلى جملة من الاستدلالات المهمة ألا وهي حق الأفراد في الإدلاء برأيهم تدعيما لحقهم في بناء التاريخ وإعادة تملكه وصياغته بما يتوافق مع طموحاتهم وانتظاراتهم.

إن مبحث الذاكرة يفرز في الأوطان التي يدرس فيها وتتطور مفاهيمه الفرعية وي طرح للنقاش ويثير هجيلا جديدا من المتخصصين الذين وبالتوازي يخضع مجتمعه للمساءلة العلمية في الوقت الذي يسائل حقيقة المجتمعات العربية والنامية مخضعا إياها مرة أخرى إلى ممارسة استشراقية. وفي نفس الزمن تبقى المجتمعات العربية خاصة مراوحة لمكانها غير أبهة به فتضيع بذلك فرصة نادرة في إجراء محاوره بين التاريخ والذاكرة حتى وإن وصل بهما الأمر للتناقض فمن التناقض ينبثق النور.

المراجع:

- 1- Jean Louis Jeanelle ,Susan Rubin Suleiman, La poétique de la mémoire selon Suleiman , in critique vol 63 , numéro 726 , novembre , 2007, P842-853 , P842.
- 2- وجيه كوثراني، الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل دراسات في البحث والتاريخ، دار الطليعة بيروت، 2000، ص212
- 3- Jean Louis Jeanelle , Susan Rubin Suleiman , opcit , p844.
- 4-Ibid , p842.
- 5- Jean François Dortier (dir) ,Le dictionnaire des sciences humaines , éd sciences humaines ,Auxerre, 2004 ,p544.
- 6-Ibid. , P545.

- 7-Gilbert Durand, les structures anthropologiques de l'imaginaire, Dunod ,Paris ,1992.
 8-Ibid 1992, p466.
 9-Ntagteverenis Paschalis , l'espace social comme lieu du lien social in [www. critique.ovh.org/0503/esp_0503article03.html](http://www.critique.ovh.org/0503/esp_0503article03.html) consulté le 7 mars 2007.
 10-Maurice Halbwachs, Les cadres sociaux de la mémoire ,Albin Michel ,Paris, 1994, p113.
 11-Ibid. , p103-104.
 12-Pierre Vidal Naquet , Les assassins de la mémoire , un Eichmann de papier et autres essais sur le révisionnisme , La Découverte / Essais ,Paris, 1991,p8.
 13-Paul Ricœur, Histoire et vérité, 3 éd, Le Seuil, Paris, 1955, p30.
 14-Maurice Halbwachs, La mémoire collective, puf, Paris, 1968, p51.
 15-Ibid. , p94-95.
 16-Ibid. , p86.
 17-Ibid. , p63.
 18-Rahal Boubrik , Saints et Société en Islam , La confrérie ouest-Saharienne Fadiliyya ,CNRS éditions , Paris ,1999, p18.
 19-Ibid.
 20-N. Lapierre, Le silence de la mémoire, à la recherche des juifs de Plock, Plon, Paris, 1989, p266.
 21-Ibid. , p265-266.
 22-Lucette Valensi à l'œuvre, une histoire anthropologique de l'Islam méditerranéen, éditions Bouchène 2002, p289.
 23-Paul Ricœur, la mémoire, l'histoire, l'oubli, Le seuil, Paris, 2000, p14.
 24-Lucette Valensi, opcit , p295.
 25-Yankel Fijalkow, Sociologie des villes, collection repères sociologie, la découverte Paris, 3^{ème} éd 2007, p25.
 26-Maurice Halbwachs, La mémoire collective, opcit, p25.
 27-Ibid.
 28-N. Lapierre, opcit.
 29-Ibid. , p266-267.
 30-Alain Roger, la mémoire de l'histoire in critique nov 2007, tome LXIII n 726, Minuit, Paris, p830-841.
 31-Jean Jacques Wununberger , l'imagination ,Puf ,Paris ,1991 ,P31.
 32-Ibid. , p32.
 33-Ibid. , p34.
 34-Anne Gratecel, l'imaginaire, Boyard éd, Paris, 2004, p9-10.
 35-Ansart, Akoun , opcit, p269.
 38-Sylvie Mesure, Patrick Savidan (dir) Dictionnaire des sciences humaines, Quadrige/Puf, Paris, 2006, p599.
 39-Cornelius Castoriadis, l'institution imaginaire de la société, seuil, 1975, Paris, p190, 191.
 40-Nicolas Poirier, Castoriadis, l'imaginaire radical, collection philosophies, Puf, Paris, 2004, p86.
 41-Ibid.
 42-Ibid. p86-87.